عودة مصر لمصر

لمصر الميزة التالية بين الأقطار العربية ، وهى أن مصرية مصر هى ذاتها عروبة مصر ، وأن الوطنية المصرية ليست انعزالية بطبعها ، ولو لم توجد القومية العربية فرضا لخلقتها الوطنية المصرية خلقا .

وربما لايحتاج المرء إلى كثير من استعادة السيرة ، وحتى تتضح له هذه الحقيقة الكبرى ، فحتى قبل الفتوح الإسلامية ، والتى كانت خطوة التتويج لنشأة الأمة العربية ، حتى قبل هذا التاريخ ، وقبل فتح عمرو بن العاص لمصر ، ثم بدء رحلة التعريب الشامل ، والتى اكتملت فى زمن قياسى ، وساهمت فيها الكنيسة المصرية بتعريب صلواتها ، وقبل أن يتغير الميزان الدينى فى زمن جاوز التعريب بقرون ، وحتى أصبح الإسلام دينا لغالب المصريين ، واكتملت لمصر شخصيتها العربية ، ودورها القيادى ، والتى لم تكن فيه أبدا دارا لخلافة ، بل كانت هى الخلافة نفسها ، وحسمت معارك الوجود الكبرى للمنطقة فى حروب التتار والصليبيين ، ونشأ أزهرها الشريف الجامع الحافظ لإسلام المسلمين ، وكانت معارك الوجود الذاتى لمصر هى نفسها معارك الأمة ، فقد دارت معارك مصر الوجودية الكبرى إلى ما نسميه بالشرق العربى الآن ، وحتى قبل تعريب لسان مصر، كانت مصر تستكشف عروبتها اللاحقة بدواعى وغرائز الأمن والوجود ، وهو ما يفسر كيف أن معارك مصر كلها دارت على نفس الميدان ، ومن "مجدو" تحتمس ، وإلى "قادش" رمسيس، وإلى معارك "عين جالوت" قطز و"حطين" صلاح الدين ، ومعارك إبراهيم باشا ـ سارى عسكر عربستان ـ فى الشام والجزيرة العربية ، وقد كان الأخير هو مؤسس الجيش المصرى الحديث ، ونجل محمد على الألبانى ، والذى شاءت له الأقدار أن يحكم مصر ، ولم يكن

يعلم حرفا واحدا فى اللغة العربية ، لكنه تصرف وتحرك بذات الطريقة وفى ذات الأقواس التى مشى فيها حكم جمال عبد الناصر بعده بمئة سنة وتزيد ، وهو ما يعنى أن مصر بإدراكها الذاتى هى التى تملى قوانينها على حكامها حين تنهض ، فحدود مصر السياسية والإستراتيجية أبعد كثيرا عن حدودها الجغرافية ، وحين تفرض عليها القيود ، وكما حدث بتواطؤ اتفاق لندن سنة ١٨٤٠ ، ثم بتواطؤ معاهدة كامب ديفيد سنة ١٩٧٩ ، فإن مصر تغيب عن مصر ذاتها ، وتقع أسيرة لمرض الغياب عن التاريخ ، ثم تغيب معها المنطقة والأمة بكاملها ، وعلى نحو ما جرى فى الأربعة عقود الأخيرة .

وربما يكون مثالًا محمد على وجمال عبد الناصر مفيدين فى الدرس والتأمل ، فقد شهد العهدان عودة مصر إلى مصر ، وشهدا نهوضا كامل الأوصاف ، لكن النهوض - فى الحالين - انتكس بضراوة التدخل الخارجى ، وبالطبع توجد فروق الزمن والحس الشعبى الأظهر فى حالة جمال عبد الناصر ، لكن قانون القابلية للانتكاس نفسه ظل ساريا ، فالمنطقة - وفى قلبها مصر - تحاول النهوض تحت حد السيف الغربى، ثم يقطع السيف رأس النهوض ، والسبب ظاهر فى ظننا ، وهو أن النهوض لم يكن محصنا بالكامل ، كان النهوض للناس وليس بالناس ، وهو الدرس الذى وعته حركة الوطنية المصرية زمن الانقلاب الطويل على ثورة جمال عبد الناصر ، والذى تبلور فيما قلناه مبكرا ، وهو أننا نريد ثورة الناس الأحرار هذه المرة لا ثورة الضباط الأحرار ، برغم أن الطريق قد يكون أطول مع ثورة الناس الأحرار ، وقد يكون المخاض عنيفا ، وقد تمضى خطوط السير متعرجة وحلزونية أحيانا ، وقد يبدو أنها ارتدت إلى نقطة البدء ، وربما إلى ما قبل البدء ، وهو ما يفسر مشهد المخاتلات فى سيرة الثورة المصرية المعاصرة ، والتى توالت فصولها من الموجة الأولى فى ٢٥ يناير ٢٠١١ ، وإلى الموجة الثالثة فى ٣٠ يونيو ٢٠١٣ ، فالثورة تقوم ولا تحكم ، وتبدو مهددة بالإجهاض دائما ، وبسبب الفجوة

الظاهرة المرئية بين مشهد الثورة ومشهد السياسة ، وهو ما يمد ظلا كئيبا على صورة مصر الراهنة ، ويوحى أن شيئا جوهريا لم يتغير ، فتغيرات الثورة لا تزال فى الشارع لا فى السلطة ، تغيرات الثورة فى نفوس الناس لا فى سياسة الحراس ، وربما يكون ذلك هو الضمان للتقدم إلى مصر الجديدة ، وإن استطال الوقت، فلم تعد مصر كاملة إلى مصر حتى الآن .

وفى مصر الراهنة ألف وجع ووجع ، فقد مرت بمرحلة انحطاط تاريخى ، غامت فيه العيون ، وكادت تنغلق فى رقدة الموت ، لكن مصر تمرض ولا تموت ، وهاهى تنهض من نومة أهل الكهف ، وتستعيد أسماءها الحسنى ، وفى ظل مشهد مختلط إلى أبعد حد ، تتكاثف فيه سلاسل القيود ، وتتزايد محاولات احتواء الثورة وتدجينها ، أو اعتبارها مجرد جملة اعتراضية و"ثورة بارتى" ، تعود بعدها الأمور كما كانت ، وهو ما يبدو مستحيلا فى ظننا حتى مع تكسر النصال على النصال ، فالثورة متعددة الموجات قابلة للانفجار مجددا ، ليس لإعادة حكم الإخوان لا سمح الله ، فهذا هو الكابوس بعينه ، وهذه هى الثورة المضادة بذاتها، فجماعة الإخوان مجرد نسخة مخادعة من جماعة مبارك ، وما من عودة مستقرة ممكنة إلى حكم الرئيس السابق أو حكم الرئيس الأسبق ، حتى وإن بدا أن الجماعتين تتناوبان على الحكم بعد الثورة ، فآية انتصار الثورة هى كسر هذه الثنائية اللعينة ، وآية انتصار الثورة هى الفوز الانتخابى لحزب أو تحالف قريب من روح الثورة ، وقد يبدو انتصار الثورة بهذا المعنى مؤجلا إلى حين ، وإن كان يحتاج إلى رؤية ثورية أصفى مما يبدو غالبا على مشهدها إلى الآن ، فقد يتطلع الثوريون إلى حكم ديمقراطى ، وإلى تداول السلطة، لكن الحكم التداولى بذاته لا يعنى انتصارا نهائيا للثورة ، فهب أن مصر كسبت حكما ديمقراطيا مع بقاء انحطاطها التاريخى، ومع بقاء مصر أسيرة للقيد الاستعمارى، وقتها لن تكون الثورة فى محلها بالضبط، فالثورة هى علم التغيير الجوهرى ، الثورة تغيير جوهرى للاختيارات الحاكمة ، وهو ما يفسر قولنا دائما أن ثلاثية مبارك الملعونة

لاتزال تحكم ، فلا يصح الحديث عن ثورة انتصرت مع بقاء اختيارات الولاء للأمريكيين وحفظ أمن إسرائيل ورعاية مصالح رأسمالية المحاسيب ، وهى الاختيارات التى ظلت تحكمنا بعد الثورة إلى الآن ، فليست القصة فى تبديل الوجوه ، بل فى تبديل الاختيارات الأساسية الكبرى ، وإحلال ثلاثية الاختيارات الثورية، وهى - فيما نعتقد - أولوية الاستقلال الوطنى والتصنيع الشامل والعدالة الاجتماعية ، فهذه الاختيارات وحدها هى التى تعيد الطريق لأقدامنا ، وتعيد مصر إلى المصريين ، وهى التى تعيد مصر إلى سباق التاريخ الذى خرجت منه قبل أربعين سنة ، وهى التى تعيد مصر إلى أمتها وإلى عالمها ، ونعرف أن الأمر ليس سهلا ، لكن الثورات تقوم لاجتراح ما يبدو مستحيلا ، فسلاسل القيود داخل مصر ومن حولها كثيرة ، والبدء ممكن جدا بكسر الحلقة الأضعف فى سلاسل القيود ، وفتح الطريق لاستعادة الاستقلال الوطنى ، والذى ضاع كما نعرف مع ثنائية معاهدة السلام والمعونة الأمريكية الضامنة ، فقد أدت معاهدة العار إلى نزع سيادة السلاح فى غالب سيناء ، ثم أدت المعونة الأمريكية الضامنة إلى احتلال مصر سياسيا ، ونزع سيادة قرار السياسة والاقتصاد والثقافة فى القاهرة ، وفى سياق انتهى إلى تجريف طاقة مصر الإنتاجية والعلمية وإفقار غالب أهلها ، وهو ما يلقى ضوءا على أولوية استعادة الاستقلال الوطنى ، وأولوية إعادة صياغة الاقتصاد والسياسة والمجتمع والدولة بالقرار الوطنى الذاتى ، والحلقة الأضعف فى سلاسل القيود ظاهرة ، وهى المعونة الأمريكية التى وصفناها من قبل بمعونة المليار مذلة ، ونزعم أن اتخاذ قرار بالاستغناء عن المعونة الأمريكية وحل هيئاتها هو نقطة البدء ، ويبدو قرارا بحد أدنى من التكلفة ، واتخاذه يبعث شعورا وطنيا وقوميا يستعيد روح ما جرى مع قرار عبد الناصر بتأميم قناة السويس ، ويشجع على اتخاذ قرارات أخطر أثرا ، تستعيد بها مصر ذاتها المضيعة .

"القدس العربى " فى ١١ من نوفمبر ٢٠١٣